المقتطف

الجزء العاشر من السنة السابعة عشرة

١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٣ الموافق ١٧ ذي الحجة سنة ١٣١٠

قرطاجنّة وخلاصة تاريخها

لم يصدق قولهم "للشعوب ادوار وللامم اعمار" كما صدق على قرطاجنّة واهلها . فقد نشأت منذ الفين وثماني مئة عام وقامت وتقوّت وناظرت مملكة الرومان وتغلبت عليها ثم ثُلّ عرشها وطمست معالمها حتى لم يبقَ منها عين ولا اثر

وهي مدينة انشأها الفينيقيون في القرن التاسع قبل المسيح في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة تونس الحالية وسموها قريث حديشث وهي كلمة فينيقية معناها القرية الحديثة وقد حرّفها اليونان والرومان والعرب فصارت كرثدون باليونانية وكرتاجو باللاّتينية وقرطاجنّة بالعربية والاصل فيها كما تقدم

ولا يعلم شيء حتى الآن من تاريخ هذه المدينة في الثلاث مئة سنة الاولى من تاريخها لان كتبها حُرقت كلها وقتما خربت سنة ١٤٦ ولم يصفها المؤرخون الاجانب قبل ذلك الزمن وصفاً شافياً . ولما ذكروها في القرن السادس قبل المسيح كانت كرسي مملكة واسعة منتشرة في شمالي افريقية ومتسلطة على سردينية وصقلية ومالطة ثم تسلطت على كورسكا في اواخر ذلك القرن . وكان سكانها من الفينيقيين الذين هاجروا اليها من صور وصيداء وبقية ثغور الشام ومن الخلاسيين الذين ولدوا باختلاطهم باهالي افريقية . وكثر هؤلاء الخلاسيون في البلاد حتى خاف منهم حكام قرطاجنّة فبعثوا بالشهير حنو في اواخر القرن السادس لينقلهم الى بلاد اخرى في افريقية فعبر بوغاز جبل طارق ودار حول غربي افريقية

وسنة ٥٠٩ قبل المسيح عقدت معاهدة بين قرطاجنّة ورومية مُنع فيها الرومانيون من تجاوز الراس الجميل في سفرهم بحراً ولعلّ الغرض من ذلك منعهم من الاتجار في

سواحل افريقية وتعهد القرطاجنيون ان لا يضروا بالمدن الرومانية ولو لم تكن خاضعة لرومية . ثم عُقدت معاهدة اخرى تُمنع الرومانيين من الاتجار في افريقية وسردينية وتبيح للقرطاجنيين ان يهاجموا كل مدينة رومانية غير خاضعة لرومية . ومفاد ذلك ان القرطاجنيين كانوا اقوى من الرومانيين فكانوا يتحكمون بالمعاهدات كما يشاءون . وبعد ذلك اشتدّت المناظرة بين الاوريين والقرطاجنيين فاحتدمت نار الحرب اولاً على صقلية بين اليونان واهالي قرطاجنة ودامت اكثر من مئتي سنة . ولم يبقَ من اخبار تلك الحرب الاّ ما كتبهُ اليونان ولو بقي ما كتبهُ القرطاجنيون لرأينا فيهِ من دلائل البسالة والاقدام ما تنجلي بهِ الحقيقة ويعلم سبب بقاء الحرب سجالاً بين الفريقين . ثم نشبت الحروب بين القرطاجنيين والرومانيين وكانت سجالاً سيفي اول الامر ثم اضطرت قرطاجنة ان تتخلى عن جزيرة صقلية فاستردها الرومانيون ولكن هميلكار القائد القرطاجني العظيم الملقب بالبرق لسرعة انقضاضهِ خرج منها خروج الظافر وسار الى اسبانيا واستولى على جانب كبير منها وانشأ فيها مملكة تقوم مقام صقلية التي خرجت من يد القرطاجنيين . وهميلكار هذا هو ابو هنيبال القائد الشهير الذي يقال انهُ اشهر قوّاد الارض قاطبةً كما يظهر مما يلي

وقد ولد هنيبال سنة ٢٤٧ قبل المسيح واسمهُ بالفينيقية حنوبعل اي حنوّ الله ولما بلغ التاسعة من عمرهِ مضى بهِ ابوهُ الى الهيكل وامرهُ ان يقسم بالله على معاداة الرومانيين معادةً ابديّة . وتعلمَ فنون الحرب والسياسة وهو بين التاسعة والثامنة عشرة من عمرهِ وقاد الجنود وغزا الغزوات تحت امرة صهرهِ هسدروبال (عون الله) الذي خلف اباهُ هميلكار على اسبانيا فوسع نطاق السلطنة القرطاجنية فيها حتى كاد يجعلها مملكة مستقلة . وقتل هسدروبال سنة ٢٢١ قبل المسيح فانتخب الجند هنيبال قائدًا عليهم بالاجماع وكان عمرهُ ٢٦ سنة فقط فاستولى على بقية اسبانيا سيفي سنتين من الزمان وكان فيها مستعمرة يونانية تحت حماية الدولة الرومانية فاجتاحها سنة ٢١٨ ومن ثم ابتدأت الحرب الفونية الثانية التي يسميها الرومانيون حرب هنيبال . فزحف على ايطاليا بتسعين الف راجل واثني عشر الف فارس وسبعة وثلاثين فيلاً وقطع جبال البرن ووصل نهر الرون في شرقي فرنسا فاعترضهُ سكانها الغالة بجيوشهم الجرارة فأثخن فيهم وهزمهم من طريقهِ وقطع جبال الالب الشاهقة في خمسة عشر يوماً وتغلّب على مصاعب لم يتغلب عليها غيرهُ من القوّاد ومات من جنودهِ خلق كثير لانهم تربوا في افريقية واسبانيا ولم يعتادوا برد تلك الجبال . ولم يصل معهُ الى السهول سوى عشرين الف راجل وستة آلاف فارس

فحاصر تورين وفتحها عنوةً ثم قابل الجنود الرومانية وهي بقيادة القائد شيبيو فاستظهر عليها وقتل وبدد اربعين الفاً من جنودهِ. وشتّى في وادي نهر بو ثم قام في الربيع وواصل الزحف ولاقى مشاق كثيرة من وعورة المسالك وكثرة السيول والبحيرات وهجرهُ كثيرون من الجنود الذين انضموا الى عسكرهِ ولكنهُ لم يأس بل واصل السير نحو رومية وقابل القائد فلامينيوس الروماني وانتصر عليهِ ولم يبقِ من جنودهِ احداً ثم قابلهُ القائدان الرومانيان اميليوس باولوس وترنتيوس قرو بثمانين الف مقاتل وثمانية آلاف فارس ولم يكن مع هنيبال سوى الفي فارس ونحو ٢٨ الف راجل فقسم جنودهُ ثلاثة اقسام وقابل بهم الجنود الرومانية وقتل منهم خمسة واربعين الف مقاتل في ثماني ساعات واسر عشرين الفاً ولم يقتل من جنودهِ سوى ٥٧٠٠ وقتل القائد باولوس ونائبهُ. وطلب اليهِ قائد فرسانهِ ان يسمح لهُ بالهجوم على رومية نفسها فلم يجبهُ الى طلبهِ لعلمهِ انهُ لم يبقَ من جنودهِ الاَّ شرذمة صغيرة لا تقوى على حصار مدينة كبيرة كاملة العدد والعدد وكان غرضهُ ان يوقع الشقاق بين رومية والقبائل المحالفة لها لكي يضعف شأنها فنجح في ذلك بعض النجاح

واقام في ايطاليا متمسكاً بعرى الحزم ولم تسكرهُ خمرة الظفر ولكنَّ الحروب المتوالية وعوادي الامراض والمشاق اهلكت جنودهُ وخيلهُ حتى لم يبقَ معهُ الاَّ القليل منهم. وطلب من بلادهِ ان تمدَّهُ بالرجال فلم يسمع احد نداءهُ ولم يُجَب لهُ طلب. كل ذلك وهو صابر يجمع الرجال من قبائل ايطاليا الخارجين عن طاعتها ويدربهم على الحرب والجلاد ولم ينكسر في واقعة من الوقائع ولا هجرهُ جندي واحد من جنودهِ المحنكين ولا تذمَّر منهُ احد. ويقال ان تغلبهُ على عواطف جنودهِ كان اعظم من تغلبهِ على جنود رومية وعلى مصاعب الطبيعة

ولبث في ايطاليا يغزو البلدان ويفتح المدن الى سنة ٢١١ قبل المسيح وحينئذٍ زحف على رومية ويقال انهُ رشق رمحهُ فوقع داخل اسوارها ولكنهُ لم يحصرها لقلة جنودهِ ثم التقى بالجنود الرومانية في السنة التالية فبدَّد شملها وما زال يقابل القواد الرومانيين ويقاتلهم قتالاً تشيب لهُ الاطفال ويشخن فيهم ويبيد الكتيبة بعد الكتيبة من جنودهم الى سنة ٢٠٧ قبل المسيح وحينئذٍ خرج اخوهُ هسدروبال من اسبانيا لنجدتهِ فلاقاهُ القائد نيرو الروماني وتغلب عليهِ وقتلهُ وقطع رأسهُ وارسلهُ الى مخيم هنيبال فلما رآهُ هنيبال تفطر فؤادهُ عليهِ وقطع الامل من نجدة قومهِ لهُ فلجأ الى الجبال وبقي اربع سنوات

اخرى يحارب الجنود الرومانية الخارجة لقتاله الى ان كانت سنة ٢٠٢ قبل المسيح وحينئذٍ استصرخهُ اهالي قرطاجنة ليعود اليهم ويدافع عنهم لان الرومانيين كانوا قد زحفوا عليهم فعاد الى قرطاجنة بعد ان اقام في ايطاليا خمس عشرة سنة والنصر ناشر لوائهُ فوق رأسهِ ولكنهُ لم يتوّعلى الجنود الرومانية في بلدهِ لان رجالهُ القلال قتلوا عن بكرة ابيهم وغيرهم من اللفيف والاتباع انضموا الى الاعداء فانتهت الحرب الفونية الثانية التي قال فيها الشهير ارنلد انها حرب رجل واحد مع مملكة رومية. وقد قتل هنيبال في وقائع هذه الحرب ثلثمئة الف محارب من الرومانيين وخرب ثلثمئة مدينة من مدن ايطاليا

ولما عقدت شروط الصلح بين قرطاجنة ورومية وجّه هنيبال همتهُ الى ادارة بلادهِ فاصلح دستورها وقوّم المعوجّ من احكامها وابعد المفسدين عنها فاعتصبوا عليهِ وسعوا بهِ الى الرومانيين فطلب هؤلاء ان يسلّم اليهم فترك بلادهُ واتى مدينة صور محلّ القرطاجنيين الاصلي ثم زار ملك افسس يحرّضهُ على محاربة الرومانيين فلم يجب طلبهُ فمضى الى ملك بثينية وساعدهُ على محاربة ملك برغامس والتغلّب عليهِ ولما رأى ان لا قبَلَ لهُ بمحاربة الرومانيين ولا نصير لهُ عليهم تجرّع سمًّا مميتًا لكي لا يقع في ايديهم

وكل ما وصل الينا من اخبار هذا القائد العظيم منقول عن اعدائهِ الرومانيين وقد حاولوا ان يضعفوا شأنهُ بتدر طاقتهم ولكنهم لم يستطيعوا ان يحجبوا شمس الحقائق فعلم من خلال اقوالهم ومطاعنهم ما اثبتاهُ من بسالتهِ وعلو شأنهِ

هذا ولنعد الى الكلام على قرطاجنة فنقول انها من يوم قُهر صاحبها هنيبال ضعف شأنها ولاسيّما لان الرومانيين سلبوها كل سفنها الحربية . ثم اجتاحوها سنة ٤٦ قبل المسيح بعد ان حاصروها سنتين وقد دافع اهلها دفاع الابطال وجادوا بالارواح والاموال ولكن

لمّا دنا الوقت لم تخلَفْ لهُ عِدةٌ وكلُّ شيءٍ الى وقت وميعادِ
حموا حريمهُ حتى اذا غلبوا سيقوا على نَسَقٍ في حبلِ مقتادِ
وعيث في كل طوقٍ من دروعهم فسيغ منهنَّ اغلالٌ لاجيادِ
حُطَّ القناع فلم تُستَرْ مخدَّرةٌ ومُزّقت اوجهٌ تمزيق ابرادِ

وكان في المدينة سبع مئة الف من السكان فسالت على حد السيوف نفوسهم واحتمل الرومان من بقي منهم حيًّا ليبيعوهم ارقاء ثم

سارت سفائنهم والنوحُ يتبعها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات اكبادِ

وجدّد الرومانيون بناء قرطاجنّة ولكنها لم تعد كرسي مملكة فينيقية كما كانت اولاً وتناسى الرومانيون تاريخ شعبها الاصلي ولم يخلدوا لهُ في بطون تاريخهم الاَّ البغضة و العداء لكن لا يتعذّر على احد ان يستدل من خلال التواريخ الرومانية على ان القرطاجنيين كانوا اهل صناعة وتجارة وحزم واقدام وانهم كانوا ابرع اهل زمانهم في سلك البحار واقتحام الاخطار ولكنهم لم يكونوا كالرومانيين في حسن الادارة والرفق بالرعايا ولا كانت جنودهم كلها من بنيهم ولذلك لم يأمنوا جانبهم دائمًا ولا بقيت البلدان الخاضعة لهم على ولائهم . وكانت ديانتهم وثنية تبيح سفك الدماء في شعائرها وتقريب الذبائح البشريّة حتى لقد كانوا يقربون ابناءهم قرابين لمعبودهم مولك

ولم يكن لهم ملك بل رئيسان ينتخبان من بعض البيوتات الكبيرة ومجلس شورى فيهِ مئة نائب واربعة نوّاب وبيدهِ القوّة الاجرائية . ومحاكم وقضاة لاقامة العدل بين الرعية . وكان دخل الحكومة من المكوس على البضائع الواردة اليهم ومن الجزية على البلدان الخاضعة لقرطاجنة ومن المعادن التي كانت الحكومة تستخرج فلزاتها في كورسكا واسبانيا . وكانت قرطاجنة ترسل الى ساحة الحرب مئة الف مقاتل ولما قهر اكومس اسطولها كان فيهِ ٣٥٠ سفينة ومئة وخمسون الف جندي . وامتدت تجارتها في البحر المتوسط كلهِ وفي الاوقيانوس الاتلنتيكي الى بلاد الانكليز وبحر بلطيك وكان لها تجارة بريّة واسعة في افريقية ووصلت قوافل تجارها الى مصر . وكانت تجلب العبيد والذهب والعاج والحجارة الكريمة من افريقية والخمر والماشية والحديد والاثمار من سواحل بحر الروم والفضة من اسبانيا وسردينيا والقصدير والنحاس من بريطانيا والكهربا من بحر بلطيك

اما قرطاجنّة التي جددها الرومانيون فبلغت اوج مجدها في القرن الثالث للمسيح وعقد فيها كثير من المجامع المسيحية وغزاها جنسرك الفندالي سنة ٤٣٩ وصارت كرسي مملكة الفندال في افريقية الى سنة ٥٣٣ . واراد الملك هرقل بعد ذلك ان يجعلها كرسي مملكتهِ . وسار عليها عبد الله بن سعد بأمر الخليفة عثمان فتحها وقتل واليها سنة ١٦ للهجرة ثم خربها حسان بن النعمان الغساني في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٤ للهجرة على ما ذكرهُ ابن الاثير في الكامل . ولم يزل اهل البحث والتنقيب من الاوربيين يبحثون عن تاريخ اهلها الفينيقيين ولا يبعد ان يروا في اطلالها ما رأوهُ في اطلال المصريين والاشوريين من الآثار التي هي ادلُّ على احوال السكان من كل ما سطّرهُ الكتّاب والمؤرخون